مقامة الأمير عبد القادر الصوفية
مكاشفة الرموز وثقافة الدلالات

Sufism Maqamat of Prince Abdul Qadir
Exposing symbols and semantics culture

د. لعور كمال

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف

laouer.kamel@yahoo.com

تاريخ الارسال: 2019/10/21 تاريخ القبول: 2019/12/19 تاريخ النشر: 2020/03/01

ملخص:

كان للأمير عبد القادر[1] باع طويل في مقام التصوف بقدر ما كان له مقام في الجهاد عند احتلال البلاد، فقد تسلح بمختلف المجاهدات وهو الذي أراد أن يصير مقدم الطريقة القادرية فإذا بالأقدار تختار له أن يكون مؤسس دولة الجزائر، وقد عرف عن الأمير أنه شاعر تمكن من القريض في وقت شحت ينابيعه حتى كاد أن يكون محي الشعر العربي رفقة البارودي لكنه أيضا ناثرا من طراز رفيع، حتى صار في نظر بعض النقاد من أرباب البيان في بداية العصر الحديث، ومن هنا يتمخض سعينا إلى التعرف على الأمير الناثر لا الشاعر، فنتبين كيف اختط صوفيته نثرا وكيف انعكس إبداعه البياني من خلال فن المقامة الشهير، من أجل تتبع دلالات رموزه المندسة في هذا الجنس الأدبي.

الكلمات المفتاحية: التصوف، الأمير عبد القادر، المقامة العربية، النثر

Abstract:

Prince ***Abdul Qadir*** had a long experience of Sufism as much as Jihad during the occupation of the country, he armed himself with various mechanisms which wanted to become the founder of the Sufi ***Qadiriya*** method and fate chooses to be the founder of the State of Algeria.

We knew from the emir that he was a poet who managed poetry at the time of his retirement, to the point of becoming almost a rejuvenator of Arab poetry accompanied by Baroudi. But he also writes high quality prose.

Therefore, we seek to identify the Sufi prince through his prose, and we will discover how his Sufism was published as prose and how his creativity was reflected through the famous art of ***Maqamat*** in order to trace the meaning of his symbols. hidden in this genre.

Keywords: Sufism, prince Abdul Qadir, Arabic Maqamat, prose.

1-بين التصوف البدعي والسني:

ليس كل تصوف تصوفا، فقد جعل علماء السلف علم الحقيقة ملازما لعلم الشريعة وذاك هو التصوف السني فيما جعلوا كل البدعة في تخلي علم الحقيقة عن الشريعة وعن التكليف والغرق في الشطحات الصوفية والسعي إلى إغراق الدين بالجديد في العبادة التي إكتملت مع نبي الأمة محمد عليه أزكى صلاة وتسليم.

لذلك سمى القشيري المتمكنين من علم التوحيد بالمتصوفة المتحققين، ولعله كتب رسالته الجليلة الشهيرة للرد على مدعي التصوف ممن أشاروا "إلى أعلى الحقائق والأحوال وادعوا أنهم تحرروا من رق الأغلال وتحققوا بحقائق الوصال، وأنهم قائمون مع الحق تجري عليهم أحكامه وليس الله عليهم فيما يؤثرونه أو ينذرونه عتب ولا لوم"[2]

والتصوف ليس شطحا وتواكلا وتخاذلا عن السعي في الحياة فتلك بضاعة الموتى والمتبطلين لذلك قال ذو النون المصري لمن طلب منه الدعاء "ان كنت قد أيدت في علم الغيب بصدق التوحيد فالدعوة مجابة وإلا فالنداء لا ينقذ الغرقى" فمن هؤلاء الغرقى الذين يقصدهم ذو النون، هل هم أولئك الذين تركوا التوحيد والعمل؟ أم أولئك الذين ركنوا إلى التوسل بغيرهم وانتظار دعواتهم كالعجائز فحبطت أعمالهم فلم ينفعهم دعاء الصالحين مثلما لم ينفع نجل نوح دعاء والده.

و التصوف في نظر ابن خلدون من العلوم الشرعية الحادثة في الملة[3]ويراه أعمق في العبادة وأغرق في الطاعة، "وغاية أهل العبادات إذا لم ينتهوا إلى هذا النوع، أنهم يأتون بالطاعات مخلصة من نظر الفقه في الأجزاء والامتثال، وهؤلاء يبحثون عن نتائجها بالأذواق والمواجد ليطلعوا على أنها خالصة من التقصير أو لا ، فظهر أن طريقتهم كلها محاسبة النفس على الأفعال و التروك، والكلام في هذه الأذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات، ثم تستقر للمريد مقاما، ويترقى منها إلى غيرها[4]

2-التصوف عند الأمير:

كان للتربية الدينية الأولى التي تلقاها الأمير عبد القادر بين يدي والده المرابط سببا في تشربه منذ نعومته بالخط الديني الروحي وسرعان ما شب على التصوف فتسنى له أخذ الطريقة النقشبندية[5] عن الشيخ خالد النقشبندي السهروردي، وحين ارتحل إلى بغداد ترسخت تعاليم تلقيه الصوفي بعد أن توج بالطريقة القادرية، فلبس الخرقة القادرية على يد نقيب الأشراف الشيخ محمود القادري الكيلاني.[6]

وقد كان أسره بسجن أمبواز سببا آخر من أسباب انخراطه في هذا العالم الروحاني فقد وجد نفسه في عزلة بعد أن أغمد سيفه، فكان يشغل نفسه بالدعاء والذكر "ورغم طول الأيام التي كانت كالأعوام، انكشفت غمته وانجلى ضيقه"[7] فصار يقول:

فما أحلى الأماني بعيد خوف وما أحلى الوصال بعيد هجر

وما أحلى التداني بعد بعد وما أحلى اليسار بعيد فقـــر

فهيأت له خلوته التي قضاها هناك كل الظروف المواتية للتأمل الصوفي والتفكير الروحاني الهادئ العميق، وتفتقت تجربته الصوفية بجلاء حين تخلص من الأسر وسافر حاجا سنة 1279هـ وأقام بمكة سنة ونصف والتقى بالشيخ محمد الفاسي رئيس الطريقة الشاذلية ، وتتلمذ على يده[8]

ومن هنا تظافرت الأسباب التي خطت مسار الانثيال الصوفي لدى الأمير فجاء فياضا متشعبا حتى فاضت خواطره في كتاب المواقف.

3–هل كتب الأمير سفر المواقف

سؤال يطرح نفسه بقوة في هذا المقام، فقد جهر بهذه الدعوى أحفاد للأمير عبد القادر مؤخرا[9] قائلين أن جدهم الأكبر لم يتسن له كتابة هذا الكتاب العامر بالتناقض، وتحدوا الكثيرين من أن يأتوا بورقة واحدة مكتوبة بخط الأمير، وان صدقت هذه الدعوى[10] فإن ميراث الأمير الصوفي كله يسقط بجرة قلم، فهل هذا الكتاب حمال أوجه لا يعدو سوى أن يمثل منجما فكريا للتيار الصوفي جمعته الحقب الزمنية الطويلة لمريدي التصوف ثم اختاروا له لقبا ذائعا براقا كلقب الأمير فنسبوه إليه من أجل الترويج والإذاعة. أم أن الأمير هو صاحب الكتاب بلا منازع وقد سبق له أن ألف أكثر من كتاب نثري مثل المقراض الحاد.

لقد كان كتاب المواقف امتدادا وتفصيلا لكتب الصوفي ابن عربي خصوصا الفتوحات المكية وفصوص الحكم، فكان الأمير من خلاله مدافعا عن المذهب الصوفي العرفاني للشيخ محي الدين بن عربي في الشام، ودليل اهتمامه بالشيخ وبمذهب التصوف أنه انتدب عالمان[11] من أصحابه إلى **قونيه**[12]لتحقيق موسوعة ابن عربي "الفتوحات المكية" وهو أول من طبعه على نفقته، وكان يدرس كتبه وفي مقدمتها الفتوحات والفصوص في مجالس يحضرها ثلة من أكابر علماء دمشق.

وقد كلف الأمير عبد القادر شيخ دمشق وإمام النقشبندية بها العلامة الصوفي محمد الخاني[13] بجمع وتبييض المواقف لأنه مؤلف من نصوص كتبها الأمير تلقائيا ليسجل بعض وارداته العرفانية في القرآن والحديث أو وقائعه الروحية ويتكون أيضا من نصوص أملاها إجابة عن أسئلة طرحت عليه خصوصا من طرف الشيخ محمد الخاني، وتعددت أزمنة وأمكنة تأليفه بحسب الورادات والأسئلة وكانت تلك الواردات تارة في أمبواز بفرنسا وطورا في مكة المشرفة فبعض المواقف كتبها الأمير بنفسه كما صرح بذلك في الموقفين 109–123وبعضها الآخر أملاه على الحاضرين أو الطارحين لأسئلتهم[14]

ولقد قرض العلماء والشعراء كتاب المواقف وكثيرا ما يرتبط الأمير بهذا الكتاب وبمذهب التصوف ولعل أبرز الأدباء الذين نسبوا الكتاب إليه شكيب أرسلان في كتابه حاضر العالم الإسلامي فيقول: "كان المرحوم عبد القادر متضلعا في العلم

والأدب سامي الفكر راسخ القدم في التصوف لا يكتفي به نظرا حتى يمارسه عملا ولا يحن إليه شوقا حتى يعرفه ذوقا وله في التصوف كتاب أسماه المواقف فهو في هذا المشرب من الأفراد الأفذاذ ربما لا يوجد نظيره في المتأخرين"[15]

لقد كان الأمير عبد القادر يشعر أن أعداء التصوف كثر خاصة أولئك الذين لم يتعمقوا أسراره ولم يتلبسوا أحواله فكان يقول: "هذه نفثات روحية وإلقاءات سبوحية بعلوم وهبية وأسرار غيبية من وراء العقول وظواهر النقول خارجة عن الإكتساب والنظر في كتاب قيدتها لإخواننا الذين يؤمنون بآياتنا ...وما قيدتها لمن يقول هذا إفك قديم ويحجر على الله تعالى من علماء الرسم..."

لذلك يحذر من النظر في هذا الكتاب إلا لمن كان له عمق مراس بهذا الميدان مستندا إلى قول السيوطي ت911هـ في كتابه تنبيه الغبي في تبرئة ابن عربي: "والقول الأفضل عندي في ابن عربي هو اعتقاد ولايته وتحريم النظر في كتبه إلا الراسخون في العلم"

ولقد مات الأمير ودفن بجوار ابن عربي بالصالحية بدمشق بتوصية منه، فهل يوجد شك بعد ذلك في نسبة الكتاب له وهو في أساسه قائم على فيوضات روحية من التطلع في القرآن وفي كتب الصوفية.

ثم أن الأمير عبد القادر ناثر أكثر منه شاعر فقد كان فارس البيان العربي ورائده في وقت استحكمت فيه الصنعة والأسجاع المغربة.

وهذا ما جعل أحد الدارسين النجباء الذين تصدوا لهذه القضية يصرح أن الإنكار "لا يستند إلى أي دليل موضوعي وما هو إلا جملة من التناقضات الواضح تهافتها ولم يقل بها أحد قبلهما من العلماء"[16]

القضية لم يحسم فيها بعد فالواجب حاليا على الباحثين أن يخوضوا بحماس علمي ثنايا هذا الموضوع ويتزودوا بمنهج صارم لا يلوي إلا على الحقيقة العلمية لرد الشبهة أو تأكيدها والفيصل في ذلك المنهج الأسلوبي الإحصائي أو ما يسمى بنقد النسبة **CRITIQUE D'ATTRIBUTION** فهو يملك من الإمكانيات التي تمكن من التدقيق في العمل الأدبي وإجراء التحقيق والتحقيقات المضادة عن طريق الربط بين مجموع السمات الأسلوبية المستوحاة من العمل الأدبي وبين عناصر أخرى لتشكيل ما يدعى المجموعة الترابطية أو البنية الترابطية التي تحتمل أن تتيح التعرف على النسبة[17]

فما دمنا من الذين يقرون سلفا ومن حيث المبدأ بنسبة كتاب المواقف للأمير عبد القادر اخترنا في هذا الصدد مقامته الصوفية التي وشحت هذا الكتاب وهي عبارة عن رحلة صوفية صورها لنا الأديب عبد القادر بقلمه ودبجته روحه الصوفية فسعى إلى تقريب صورة التصوف من المشاهد والسامع. وهمنا في كل ذلك أن نتبين بعض رموز القوم وأحوالهم وطريقة الكتابة النثرية على عهد الأمير.

4–مقامة الأمير الصوفية:

سجل الأمير عبد القادر رحلته في عالم التصوف نثرا فغاير طريقة من سبقه من الشعراء الذين سلكوا طريق القريض في وصف الرحلة، فاختار المقامة لأنها الأقدر على الغوص في الأبعاد المكانية والزمانية والسردية، فهي الإنجاز القصصي البازر الذي توارثه العرب منذ العصر العباسي، لتوافرها على مساحة للبوح ومساحة للتنغيم بما يتناسب وأحوال المتصوفة الذين يستعذبون الكلمات الفصيحة ويحولونها إلى دف للجذب والإفهام وكذلك الإستعجام؟

ونتعجب أحيانا من إغفال بعض الدراسين لهذه المقامة رغم أنها تتوافر على طاقة قصصية نادرة الوجود في الأدب الجزائري القديم والوسيط، وليس أدل على ذلك من التفرس في كتاب عبد الملك مرتاض الذي درس المقامات في الأدب العربي وكذلك عمر بن قينة الذي درس المقامة الجزائرية وأفرد لها كتابا فلم يشر الكتابان إلى الموضوع لا من قريب أو قصي بعيد.

فهل ينضاف ذلك إلى ظلم غريب يطال المنتوج الصوفي؟ وهو إن كان منجما زاخرا بالمعاني والرموز فقد ظل لأزمان حبيس الدوائر الدينية الضيقة فلم يروج له بالطريقة المثلى.

وتروي هذه المقامة انشغال الأمير بالبحث عن المعشوقة غير المرموقة التي خطب ودها الكثيرون فما فلحوا في رصدها ولا غنموا في طرادها فيقول في بداية المقامة "إن في الوجود معشوقة غير مرموقة الأهوية إليها جانحة والقلوب بحبها طافحة، والأبصار إلى رؤيتها طامحة يطير الناس إليها كل مطار، ويرتكبون الأخطار، ويستعذبون دونها الموت الأحمر، ويركبون لطلبها المكعب الأسمر ولا يصل إليها إلا الواحد بعد الواحد في الزمان المتباعد"(18)

ويمكن أن تفسر هذه المعشوقة المطاردة بالكشف الروحاني أو مرحلة الوصل التي تغنى بها شعراء التصوف الواصلون والعاطلون لأنه يقول بعد ذلك لسامعيها في المجلس: "إني وصلتها وحصلتها وبعد التعب والعنا ومعاناة الضنا وجدت هذه المعشوقة أنا ويتبين لي أنني الطالب والمطلوب والعاشق والمعشوق، فما كان هجري لذاتي إلا في طلب ذاتي"(19)

فالظاهر خلق والباطن حق، وما في الجبة إلا .....كما صاح من أزهقت روحه يوما ما واتهم بالحلول، والرسالة القشيرية عامرة بمصطلحات تقترب مما ذكره الأمير في بداية مقامته كالحضور والفناء والمحو والصحو، وقريب من هذه الحقيقة ما رواه الشبلي حينما سئل عن قلقه وهو في رفقة خالقه" لو كنت أنا معه لكنت أنا، ولكني محو فيما هو، والمحق فوق المحو، لأن المحو يبقي أثرا والمحق لا يبقي أثرا وغاية همة القوم أن يمحقهم الحق عن شاهدهم ثم لا يردهم إليهم بعدما محقهم عنهم"(20)

ثم يطلب الناس من هذا الصوفي أو عريف الجماعة دليلا يقيمه على وصوله، فيستعجم ويستغلق حتى يحكم عليه بالجنون والعته، وفي هذه الأثناء يتدخل بطل القصة وهو ليس إلا الأمير متشفعا بسابقته في الجهاد الحربي ليفك لهم طلاسمها قائلا: "يا قوم ألستم تعلمون أني طلاع الثنايا؟ فأنا آتيكم بحقيقتها ومجازها وأفك لكم المعمى من ألغازها"

ثم قرر البطل خوض هذه التجربة الروحية المضنية وسار في المقامات واتشح بالأحوال، ومر على مشاهد وعلى جماعات غارقة في البحث عنها ولسان حالهم يقول:

أيا من نحن في تعب الجبال وهو يخوضها ولا يبالي

حتى وصل إلى الغاية المنشودة: "ألقي علي ما ألقي عليهم، وثبت لدي ما ثبت لديهم ولما وصلت حيث وصلوا وحصلت على ما عليه حصلوا طلبت الإباحة والجواز إلى التقدم والجواز وقد عرفت الحقيقة والمجاز فقيل لي لا تتخطى رقاب الصديقين، ارجع فما وراء موقفك إلا العدم المحض لا ثبات ولا ركض"[21]

ولقد تشرب الأمير الحقيقة الصوفية لكنه ما استطاع البوح بها، ومن خلال هذه المقامة يتجلى أن ظاهرة الكشف في التصوف تبقى مستغلقة على الآخرين ما لم يجربوها ويطرقوا بابها وأن الحديث عن علم القوم تصغر دونه التعابير وحينما يختار المرء الرموز قد يقع في الشطط. فتواضعوا على مصطلحات لا يعرفها غيرهم أو هي محجوبة عنهم عمدا من قبل المتصوفة "للستر على من يباينهم في طريقتهم، ولتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب، غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها"[22] ثم لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم، إذ "الأوضاع اللغوية إنما هي للمعاني المتعارفة، فإذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف، إصطلحنا على التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه منه ،فلهذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس يوجد لغيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه"[23]

فيقول الأمير على لسان البطل في ناهية المقامة "وحين رجعت إلى الأصحاب قالوا: ما وراءك يا عصام؟ فقلت: القول ما قالت حذام، ولكن يا قوم لا تعجلوا بالعتب واللوم، أرأيتم لو جاءكم عنين عديم حاسة الذوق، وقال: عرفوني لذة الجماع، بما كنتم تفهمونه علم ذلك وتعلمونه؟ فقالوا : لا سبيل إلا الذوق لما هنالك، فقال لهم، وهذا من ذاك فمنهم من سلم وأنصف ومنهم من ألح وتعسف، وربك أعلم بمن هو أهدى سبيلا وأقوم قيلا، وعندما ينجلي الغبار يتبين راكب الفرس من الحمار"

إنها قصة شيقة بكل المقاييس وتعابيرها البسيطة والموحية أيضا تجعلها مقامة حديثة تنضاف إلى انجازات اليازجي وحافظ إبراهيم اللذان سعيا إلى تطويع المقامة لروح العصر الحديث.

وجِدتها لا تكمن في موضوعها المختار فقط لأنه خرج عن الكدية التي كانت لوقت طويل العنوان البارز للمقامة ولكنها أيضا تطفح بالأساليب البيانية واللغة الحوارية والرموز الصوفية مما يجعلها نصا بيانيا ناضجا بمختلف الأبعاد.

ولهذه المقامة حبكة فنية شيقة، والحبكة إسم جامع لطائفة المصطلحات الفنية التي تأتلف منه القصة ولا تكون ناجحة ناضجة إلا بالإشتمال عليها[24]، وتتم الحبكة في المقامة بطريقتين إما بطريقة السرد أو الطريقة الذاتية، وقد كان بديع الزمان الهمذاني يستعمل الطريقة الأولى أما الأمير عبد القادر فلم يكتف بإحدى الطريقتين وإنما جمعهما معا.

كان الأمير يرفض الإيمان التقليدي الوارد عن طريق التعليم والتلقين والإكتساب[25]لذلك كان ملما بهذه القبسات الروحية العطرة التي ورثها عن والده وطورها بمجاهداته وخلواته.

وفي المجال الأدبي انفردت مقامته بخصوصيات تحول بينها وبين أنموذج المقامة التراثية المتبع من قبل الكتاب.

أول ما نشير إليه في هذا المقام مسألة استهلال المقامة، وهي تبدأ عادة بعبارات "حدثنا، أو حكم، أو روى، أو نحوها وهذا كله خاص بالمقامات التي كتبت على خطة البديع"[26] ومعظم المقامات من بديع الزمان الهمذاني إلى اليازجي كانت تتبع طريقة حدثنا لكن الأمير شذ عن هذه الخاصية التي أنهكت المقامات وربما مرد ذلك إلى أن ما حال بين الشعراء الأقدمين أن يتناولوا الفكرة المرادة في قصائدهم بدون التعريج على النسيب هو الذي حال بين المقاميين دون أن يقولوا حدثنا[27]

وقد لمحنا في مقامة الأمير ظلالا خافتة لظاهرة فلسفية فكرية وهي مسألة وحدة الوجود وفكرة الإنسان الكامل رغم أن النظرة الفلسفية نادرة الوقوع في المقامات من حيث أنها كانت لا تلتفت إلى النواحي العقلية المعمقة بقدر ما تلتفت إلى استخدام المحسنات اللفظية.

ويظهر تأثر الأمير جليا بمحي الدين بن عربي في قضية الإنسان الكبير والعالم الكبير[28]حين يقول ابن عربي بمثل ما قاله الأمير في بداية مقامته: "فهو عين الوجود، فهو "على كل شيء حفيظ" بذاته، ولا يؤده حفظ شيء، فحفظه تعالى للأشياء كلها حفظه لصورته، أن يكون الشيء غير صورته، ولا يصح إلا هذا، فهو الشاهد من الشاهد، والمشهود من المشهود، فالعالم صورته، وهو روح العالم المدبر له فهو الإنسان الكبير"[29]

ويواصل **ابن عربي** رسم خطوط عقيدته الصوفية في فصوص الحكم وهي التي اعتملت في مخيلة الأمير ووجدانه حين كان يرسم الخطوط العريضة لهذه المقامة، "فقل في الكون ما شئت: إن شئت قلت هو الخلق، وان شئت قلت هو الحق، وان شئت قلت هو الحق الخلق"[30]

ولقد ترجم الأمير عبد القادر هذه الحقيقة التي تشبه الحيرة شعرا حين صدح بقوله:

فهل أنا موجود وهل أنا معدوم وهل أنا ثابت وهل أنا منفي

وهل أنا ممكن وهل أنا واجب وهل أنا محجوب وهل أنا مزي

وهل أنا ذا حق وهل أنا ذا خلق وهل عالمي غيب أو أني شهادي[31]

ويضارع ذلك قول ابن عربي :"وان شئت قلت لا حق من كل وجه ولا خلق من كل وجه، وان شئت قلت بالحيرة في ذلك"[32]

لقد استولت المصطلحات الصوفية على كل من نقب في هذا الميدان وكان الأمير واحدا ممن جادوا بتعابيرهم ودار بيانه العربي حولها، بل إننا نجد المتصوفة في القرن العشرين يسيرون في الطريق ذاته مع المبالغة والشطط وهو ما أثر عن **مصطفى ابن عليوة** زعيم الطريقة العليوية الذي قال بالحلول شعرا ووجد الرد حاسما وعاصفا من قبل ابن باديس، وصحبه.

ومن الرموز التي ينضح بها نص الأمير لفظتي المعشوقة والعاشق وهي مفردات حسية وظفت للتعبير عن العالم الداخلي الباطني، وكثيرا ما كانت لحظات الوجد والجذب تسوق المتصوفة إلى إنزال المعاني الروحانية بتعابير ذات مدلولات حسية، وكثيرا ما عشق المتصوفة لحظات القرب وحضرات الكشف والترقي حينما تنتشي الأرواح بقربها. ومن قوي حبه تسرمد شربه على حد تعابير أقطابهم.

من خلال اطلاعنا على مقامة الأمير وجدناها تعج بمعاني ظاهرة أريد لها أن تكون ذات عوالم باطنة ومن هنا "تمسك بالبناء الفكري لابن عربي الذي يلعب فيه اصطلاحا الظاهر والباطن دورا هاما" فانتحلت رحلته قالب المقامة القصصية ،ولم يكن الغرض منها وصف رحلة حسية في عالم الماديات، وإنما كانت تعج بمجاهدات ضد أدران المادة، وغشاواتها طلبا للمعاني الروحية والأسرار الباطنية. فصور ما يصادف المتصوف في رحلته من عناء ووصب من مقامات مكتسبة وأحوال موهوبة.

فتعبير"لا يصرفه صارف، ولا تحركه العواصف" إنما تدل ظاهريا على خروج شخص في جو عاصف منغص، وأن المفهوم الباطني والمخفي لهذه العبارة إنما يشي إلى مقام الصبر الذي يتمسك به الأمير لبلوغ رحلته الصوفية حيث أن هذا المقام "في جوهره يتكون من عناصر الشجاعة في مقاومة الشدائد"[33] وهي مرحلة تسمى في التصوف بمجاهدة التقوى،

ويقول أيضا "فاعتمدت على الواحد الأحد لا ألوي على أحد" وهي تصور ببراعة مقام التوكل ثم يقول "وما زلت ممتطيا صهوتي النسر والغراب" وفي العبارة تخييل يقصد منه تصوير السمو والتحليق في الأجواء للتعبير عن حال القرب "الذي لا يحضى به إلا الملبون لدعوته المستجيبون لطاعته"[34]وتسمى هذه المرحلة بمجاهدة الإستقامة.

ثم تبدأ المرحلة الثالثة من الرحلة حيث يكتشف الأمير هذه الحقيقة ويصل إليها فيقول: "إلى أن ظهرت لي الأعلام التي ظهرت لمن قبلي من الوافدين الأعلام"[35]

وهنا يقصد معنا باطنيا وهو الوصول إلى مرحلة المكاشفة، فيصبح الصوفي مستعدا لقبول نور اليقين وينظر بنور الله فيعرف من المعلومات ما لا يعرفه دونه من البشر[36]

ثم يعود الأمير من جديد إلى حاله الأول وليس معنى المشاهدة الرؤية الفعلية فما قال بها إلا غلاة المتصوفة ومتشدقيهم لذلك قال النوري "لا يصح للعبد المشاهدة مادام حيا" وقال القشيري كذلك "فإن في ظهور الحق سبحانه إهلاك الخلق"(37)

وقد وصل الصوفي في هذه القصة التي نسجها الأمير الى مشهد الفناء حيث يستولي عليه سلطان الحقيقة حتى لا يشهد من الأغيار لا أثرا ولا رسما ولا ظلا فيفنى عن الخلق ويبقى بالحق، وهو ما عرف لدى المتصوفة بكشف حجاب الحس ويتم وجود النفس الذي لها من ذاتها، وهو عين الإدراك فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية والعلوم اللدنية والفتح الإلهي وتقرب ذاته في تحقق حقيقتها من الأفق الأعلى أفق الملائكة"(38)

ولما كان التصوف علما لا يدرك إلا بالذوق استعان الأمير بالمنطق لتقريب صورة الممارسة الصوفية فأتى بمثال على أساس المشابهة يندرج ضمن القياس التمثيلي الذي يعتبر أن القاسم المشترك بين اثنين مستلزم للحكم على الأول مثل الحكم على الثاني، وقد عرف عند فقهاء المسلمين فقال: "أرأيتم لو جاءكم عنين عديم حاسة الذوق وقال عرفوني لذة الجماع بم كنتم تفهمونه علم ذلك وتعلمونه؟"

فقالوا: "لا سبيل إلا الذوق كما هناك، فقلت لهم: وهذا من ذاك"

وقد صور الأمير عبد القادر الذوق وهو مفهوم حسي في الرحلة الصوفية بالمفهوم الباطني الذي يرمز به لخوض التجربة الروحية بعد أن بلغت الكشف جراء المشاهدة والمعاينة.

لقد استطاع الأمير عبد القادر أن يقرب الممارسة الصوفية ويقحمها ضمن نص ديني ذي أبعاد أدبية اختار له ثوب المقامة العربي الأصيل، ووشحه برموز هذه الطائفة مما غرفه من قراءاته ومجاهداته فكانت رحلته الروحية هي رحلتهم، فاستعان على جهاد النفس بسابقته في الجهاد الأصغر، فكانت مقامة فريدة من نوعها في إيحاءها وجزالة تعبيرها، وكذلك في براعة خطها التواصلي لتقريب بعض دقائق المتصوفة، وهي أيضا لا تزال مشرعة على الدراسة لأن بنيتها الدلالية والفنية والجمالية بحاجة إلى لفتات أخرى.

الهوامش:

(1) ولد الأمير يوم الجمعة 23 رجب 1222هـ الموافق لشهر ماي 1807 في قرية القيطنة تربى تربية دينية في كنف والده محي الدين رائد الطريقة القادرية بالجزائر حفظ القرآن في سن الرابع عشر، بويع وعو شاب تحت شجرة الدردارة بالإمارة بعد احتلال الجزائر سنة 1830، خاض حربا دامت أكثر من عقد فاضطر إلى الاستسلام سنة 1947 وأسر بسجن أمبواز ثم انتقل إلى بورسة ثم إلى دمشق وبها استقر إلى وفاته سنة 1883 ودفن إلى جوار قبر الشيخ محي الدين بن عربي، من مراجعه النثرية المقراض الحاد، المواقف في التصوف، الصافنات الجياد.

(2) أبو القاسم القشيري: الرسالة القشيرية في رجال الطريقة،دار صادر، بيروت ط3،2011ص:11

(3) مقدمة ابن خلدون، تحقيق: حامد أحمد الطاهر دار الفجر للتراث القاهرة، ص:576

(4) المصدر نفسه، ص:578

(5)النقشبندية نسبة إلى الشيخ بهاء الدين محمد البخاري المعروف بشاه نقشبند-1318-1398م وهي طريقة تتبع الكتاب والسنة وتجتنب البدعة والشطحات وسفاسف السماع، أما القادرية فتنسب إلى الشيخ عبد القادر الكيلاني البغدادي 1078-1166م كانت معتدلة غير مغالية تحث على الجهاد وأحيت باب البيعة لتجديد العهد والميثاق.

(6) السيد فؤاد صالح: الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا،ا لمؤسسة الوطنية للكتاب، د.ت، الجزائر،ص:187

(7) الأمير عبد القادر: المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، ج1 دار اليقظة العربية،دمشق ،ط2، 1967،ص:472.

(8) جواد المرابط: التصوف والأمير عبد القادر الجزائري الحسني، دار اليقظة دمشق،1966، ص:28

(9) يقود هذا الموقف السيد بديعة في كتابها فكر الأمير حقائق ووثائق، إلى جانب قريبها السيد خلدون الدمشقي ينظر كتاب فكر الأمير عبد القادر حقائق ووثائق، للأميرة بديعة الحسني الجزائري، طبعة أولى، دار الفكر، 1424هـ / 2000م.

(10)حري بالباحثين ان يخوضوا غمار التنقيب في هذا المجال من أجل إبطال هذه الدعوى أو إثباتها إن كانت حقيقة

(11) هما الشيخ محمد الطنطاوي، والشيخ محمد الطيب المبارك

(12) مدينة تركية، وهي عاصمة محافظةٍ تحمل نفس اسمها .تقع في وسط جنوب الأناضول، كانت قونية المنزل الأخير للصوفي جلال الدين الرومي وفيها ضريحه توفي عام 1273، وله أتباع في قونية وقد صارت المحلة مأوى للدراويش الدوارة.

(13) محمد بن عبدالله بن مصطفى الخاني ولد بإدلب بسوريا سنة 1798ثم أخذ الطريقة. القادرية (الصوفية) ثم الطريقة النقشبندية على خالد النقشبندي في دمشق ولازمه في جامع العداس وصار معدًا لدروسه في مدرسة داره. توفي سنة 1861 اشتغل بأمور الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ينظر معجم البابطين www.almoajam.org

(14) الأمير عبد القادر: كتاب المواقف،ج3،ط الجزائر 1996،ص:98.

(15) يوسف النبهاني: حاضر العالم الإسلامي،دار الكتب العلمية ببيروت 1958ط1،،ج2،ص:172.

(16) ينظر بحث لعبد الباقي مفتاح بعنوان الرد على من أنكر نسبة المواقف للأمير عبد القادر، براس لافبو Presses de l'Ifpo 2012 ،ص254-267

(17) للاستزادة من هذا المنهج يراجع مناهج النقد الأدبي ليوسف وغليسي،جسور للنشر والتوزيع،ط1،2007 ص92.

(18) المواقف،ج1،ص:13

(19) المصدر نفسه، ص:13

(20) أبو القاسم القشيري: الرسالة القشيرية في رجال الطريقة،ص:37

(21) المصدر السابق، ص:14

(22) الرسالة القشيرية،ص:21

(23) مقدمة ابن خلدون، ص:578.

(24)عبد الملك مرتاض: فن المقامات في الأدب العربي،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1980،ص479.

(25) فؤاد صالح السيد: الأمير متصوفا وشاعرا، ص:123.

(26)عبد الملك مرتاض: فن المقامات في الأدب العربي،ص:3611

(27) المرجع نفسه، ص:477.

(28) ينظر محمد بلقراد الجانب الصوفي والثقافي في حياة الأمير عبد القادر،مجلة التاريخ،عدد خاص النصف الأول من سنة 1983،ص(81-96)

(29) محي الدين ابن عربي: فصوص الحكم، دار صادر بيروت، 2005 ط1، ص:68.

(30) المصدر نفسه، ص:69

(31) ديوان الأمير عبد القادر، تحقيق زكريا صيام، ديوان المطبوعات الجامعية،ص:95

(32) المصدر نفسه، ص:70

(33) زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق،ج2، مؤسسة الهنداوي مصر 2012ص:123

(34) فؤاد صالح السيد: الأمير متصوفا وشاعرا، ص:150.

(35) المواقف،ج1ص:13.

(36) الأمير متصوفا وشاعرا، ص:155

(37) الرسالة القشيرية،ص:38

(38) مقدمة ابن خلدون، ص:579

قائمة المصادر والمراجع:

1- أبو القاسم القشيري: الرسالة القشيرية في رجال الطريقة، دار صادر، بيروت ط32011.

2- ابن خلدون، المقدمة، تح: حامد أحمد الطاهر دار الفجر للتراث القاهرة.

3- الأمير عبد القادر: المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، ج1 دار اليقظة العربية، دمشق، ط2، 1967.

4- الأمير عبد القادر، ديوان شعري، تح: زكريا صيام، ديوان المطبوعات الجامعية

5- جواد المرابط: التصوف والأمير عبد القادر الجزائري الحسني، دار اليقظة دمشق،1966.

6- كي مبارك: التصوف الإسلامي، ج2، في الأدب والأخلاق، ج2، مؤسسة الهنداوي مصر 2012

7- السيد فؤاد صالح: الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، د.ت، الجزائر.

8- عبد الملك مرتاض: فن المقامات في الأدب العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1980.

9- محي الدين ابن عربي: فصوص الحكم، دار صادر بيروت، 2005 ط1.

10-محمد بلقراد: الجانب الصوفي والثقافي في حياة الأمير عبد القادر، مجلة التاريخ، عدد خاص النصف الأول من سنة 1983

11-يوسف النبهاني: حاضر العالم الإسلامي، ج2دار الكتب العلمية ببيروت 1958ط1.

12-عبد الباقي مفتاح: الرد على من أنكر نسبة المواقف للأمير عبد القادر، محلة براس لافبو Presses de l'Ifpo دمشق 2012.